مضمار الحقائق وسر الخلائق

لصاحب حماة

محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي

(٥٦٧ (؟) - ٦١٧ هـ)

تحقيق

الدكتور حسن حبشي

ملتزم الطبع والنشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

القاهرة ت : ٥١٤٠١

المقدمة

مؤلف هذا الكتاب هو المنصور محمد صاحب حماة بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، نشأ فى بسطة من العيش وفى أسرة تركت طابعها قويا وعميقا فى تاريخ الاسلام والغرب فى العصر الوسيط ونعنى بها الأسرة الأيوبية ، فأبوه عمر بن أخى صلاح الدين وعمه الصلاح الذى حسبه أن يذكر اسمه لترتسم فى الذهن صورة أمة وموكب فتوحات ، وانتصار عقيدة ، وكتاب تاريخ فهو فى الطليعة من رجالات القرن السادس الهجرى باجماع ليس فيه من شاذ أو منكر ، وهو فى ذروة مجد ظهر فى ازالة دولة واقامة أخرى مستقلة وان كانت تابعة للخلافة العباسية ، وكانت للاسلام درعا وعلى أعدائه والطامعين فى أرضه حربا .

أما الأب فهو تقى الدين عمر بن أخى الصلاح ، وكانت له همة تسمو الى المعالى وتتطلع الى احتجان السلطة : تقديرا منه لنفسه ـ عن حق ـ وادراكا لقوته وعزيمته ، ويزكى هذه المطامع « اقدامه فى الحروب وتأييده فى الوقائع» (١) و «ليس فى عينه من أحد شىء» (٢) ، وكان صلاح الدين يدرك فيه هذا الطموح دون أن ينكره عليه أو يعاقبه من أجله ، اذ كان يرى فيه الرجل الذى يستطيع الاعتماد عليه فى أوقات تتطلب الرجال (٣) ذوى القدرة والكفاية ، وقد يكون بعض الشر أحيانا أهون من بعض ، ولقد رتبه الصلاح نائبا عنه فى الديار

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٢٨/٣ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٤٦ .

(٣) وربما كان أعظم ما يبين تقدير الصلاح للرجال أخذه حلبا من ابنه المظفر « وكان أحب أولاده الى قلبه ، لما خصه به من الشهامة والفطنة والتعقل وحسن السمت والشغف بالملك وكان أبر الناس بوالده » ، واعطاؤه اياها لاخيه العادل لمصلحة رآها ، انظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٤ .

المصرية فى بعض غيباته عنهـا ، ذلك أنه فى رجب سـنة ٥٧٩ هـ برز السلطان لمحاصرة الكرك وبعث فى طلب أخيه الملك العـادل من مصر وحينئذ سير الملك المظفر تقى الدين اليها وسير معه القاضى الفاضل ، وفى هذه النوبة أعطاه السلطان الفيوم وأعمالها مع القايات وبوش (١) وكان اقطاعا عظيما (٢) ، وان أبقى معه فى الوقت ذاته حماة وجميع أعمالها ، ومع استجابة الملك العادل لأمر أخيه صلاح الدين الا أنه شق عليه ترك مصر « لأنه كان آنس بأحوالها من المظفر » ، فرضخ السلطان لمطلب العادل وكتب الى تقى الدين عمر يأمره بالقدوم الى الشامفغضب التقوى ولم يكتم عن الناس غضبه ، وأعلن عزمه على المسير الى برقة وديار المغرب ليلحق بفتاه شرف الدين قراقوش المظفرى التقوى (٣) ، غير أن الكثيرين ممن حوله لاموه على أن يقدم على هـذه الخطوة ونجحوا فى ثنيه عن مرماه (٤) ، وانصاع لنصحهم وخرج فلاقاه السلطان بمرج الصفر بعد اقامة طالت ثلاثة أعوام بمصر « وكان فرح الصلاح به شديدا » ووصـل مع قفل مصر الشتوى ومعه آل بيته غـير ابنه المنصور فقد تركه بها نائبا عنه ، على أن تقى الدين انصرف لتحقيق ما أراده السلطان فسار الى حارم « ليعلم العدو أن هذا الباب ليس بمهمل (٥) » .

ويبـدو لنا أن المظفر كان ينوى الاقامـة فى مصر ، ومن ثم نراه يشترى « منازل العز » التى كانت قد بنتها السيدة تغريد أم الخليفة العزيز بالله الفاطمى : نزار ، والتى كانت قد بذلت فيها كل ماصيرها من

---

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ٦٣ ،المقريزى : السلوك ، ٨٢/١ .

(٢) راجع ص ٦ من هذه المقدمة ، وحاشية رقم ١ بها .

(٣) كان قراقوش هذا قد خرج الى تلكالبلاد غازيا وكتب الى مولاه تقى الدين عمـر يقول له « ان البلاد سـايبة » ، أنظر أبو شامة : الروضتين ٧٠/٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١٨٠/٢ ؛ وقد وجدت دعوة المظفرصدى طيبا فى نفس التقى وعزم على الخروج وكتب الى السلطان يسـأله « ألا يمنعه منسلوك مسلكها » وكان همه ان يؤسس لنفسه ملكا بها ، وقد وجد التأييد من العساكر المصرية « لبذله وشجاعته » وكان من رأىالسلطان « أن فتح المغرب مهم ، ولكن فتح بيت المقدسأهم ، والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم » .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٢٩/٣ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ،ص ٧٥ .

أحسن أماكن القاهرة بهجة لا سيما وهى مطلة على النيل من ناحية مصر القديمة ، وأصبحت هذه المنازل من بعدها مكانا لنزهة الخلفاءالفاطميين وكان الى جوارها حمام يعرف بحمام الذهب ؛ وقد أعجبت « منازل العز » هذه تقى الدين عمر ، ولم يخف ذلك على السلطان صلاح الدين فأسكنه اياها حين أزال الدولة الفاطمية وسكنها المظفر فترة من الزمن ثم ما لبث أن اشتراها لنفسه فى شعبان سنة ٥٦٦ هـ ؛ ويشير المقريزى(١) الى أنه حينما خرج من مصر الى الشام « وقف العز على فقهاء الشافعية ووقف عليها الحمام وما حولها ، وعمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة ، ووقفه عليها كما وقف عليها الروضة » .

ومما يدل على عناية السلطان بتقى الدين أنه جعله كفيل ولده الملك المظفر عثمان بوصية سلطانية ، وأمر بأن يستقر فى خبزه وما بيديه حتى بعد استرشاده ، وأخذ تقى الدين نفسه باصلاح الأمور فخرج فى سنة ٥٨١ هـ لكشف أحوال الاسكندرية (٢) ؛ وقد ختم المظفر حياته خير خاتمة فمات فى حومة الجهاد حيث كان قد توجه فى سنة ٥٨٧ هـ الى قلعة « منازكرد » ــ وكانت لبكتمر صاحب خلاط ــ وضايقها بعسكره ، ولكن الموت باغته يوم الجمعة ١٩ رمضان من السنة ذاتها ، فحمل الى حماة سرا ، حيث نقله ولده المنصور محمد صاحب كتاب « المضمار » (٣) .

على أن ابنه المنصور استولى على البلاد الجزرية بغير اذن السلطان وأرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه ، الا أن الصلاح رأى فى هذه الخطوة من جانب المنصور استهانة بسلطانه وتحديا لمشيئته وخروجا عليه وهو ولى نعمته ونعمة أبيه ، واجبارا له على الرضوخ

---

(١) المقريزى : الخطط ، ١/٤٨٤ ، ٢/ ٣٦٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ١/٩٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/١٢٩؛ وأبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ٣/٨٠ ــ ٨١ ، وجاء فى النجوم الزاهرة ٦/١١ نقلاعن ابن شداد أنه لما جاء صلاح الدين ــ وهو بالرملة ــ كتاب بوفاة تقى الدين عمر قالوقد خنقته العبرة : مات تقى الدين ، اكتموا خبره مخافة العدو .

للأمر الواقع ، ومن ثم عهد الى ابنه الأفضـــل أن يزحف على الثائر الصغير ، وكتب الى أصحاب البلاد الشرقية (كالموصل وسنجار وديار بكر) يأمرهم بنجدة ولده فيما أنهضه من أجله ، فأوقع بيد المنصور الذى رآى السلامة فى اصلاح ذات البين بينه وبين عم أبيه ، فاستجاب له الملك العادل الذى توسط له لدى أخيه صلاح الدين وراح يفئ غضبه عليه حتى قبل أن يبقيه على ما كان بيد تقى الدين فى بلاد الشام ـ وهى حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم (١) ـ على أن تؤخذ منه البلاد الجزرية (٢) ؛ ولقد كانت اقامة المنصور بحماة حاملة اياه على بناء جسر بظاهرها خارج باب حمص (٣) .

وعلى الرغم من اشتراك صاحب « المضمار » فى أحداث هذه الفترة سياسيا الا أنه ليس بأيدينا ما يشير الى سنوات حياته الأولى ، ولقـد سكتت المراجع كلها عن تحديد سنة مولده وان كان الأرجح أنه ولد عام ٥٦٧ هـ ، نستدل على هذا من عبارة وردت فى ترجمته الموجزة التى ذكرها المقريزى (٤) حيث قال انه مات فى ذى القعدة سنة ٦١٧ هـ « عن خمسين سنة » . على أن هذه المصادر كلها تجمع على شجاعته وحبه للعلماء (٥) ، حتى ليقال انه كان فى خدمته مائتا متعمم من النحاة والفقهاء ، وكان ولوعا بالأدب والشعر بل كان هو نفسه ينظمه ، ووضع فيه كتابا اسمه « طبقات الشعراء » ، كما اهتم بالتاريخ وتدوينه ، وترك لنا كتابا ضخما فيه وان ضاع معظمه هو « المضمار » ، الذى وصـــفه أبو شامة (٦) بأنه قد جمع فيه « جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقام عنده » ، ونستبين ضخامة هذا السفر مما ذكره مترجموه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٣٧٩، وأبو الفداء : شرحه ٣/١٢٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ١١/١١٨ .
(٣) أبو الفداء : المختصر ٣/١٢٦ .
(٤) المقريزى : السلوك ١/٢٠٥ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/٢٥٠ .
(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٢٤ .

عنه من أنه بلغ عشر مجلدات (١) ، وان اكتفى ابن العماد الحنبلى بقوله انه يقع فى « عدة » مجلدات (٢) .

ولقد كان المنصور محمد ممن يحبون الأدب وأسهموا فيه بقسط وافر كما أسهم فى الحـروب بسيفه ، وقد جمع حوله ــ أو اجتمع حوله ــ لفيف كبير من الشعراء والأدباء فأفسح لهم مجالسـه ولم تصرفه أحداث العصر ــ وهى جسام ــ من أن يخلو الى نفسه فيقرض الشعر وينظر فى أشعار السابقين ، ولقد وصلت الينا نسخة من مؤلف له عن الشعراء أملاه فى دار المزة من قلعة حماة فى مجالس آخـرها سنة ٦٠٢ هـ أى قبل موته بخمس عشرة سنة ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة فى مكتبة ليدن بهولندة تحت رقم (٣)Or. 639، ويستدل من تصفح هذا المؤلف على أنه معجم للشعراء وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان لضياع آثارهم لولا ما ادخره « الطبقات » فى ثناياه .

أما كتابه فى التاريخ فهو « المضمار » الذى ينشر اليوم لأول مرة ــ أو تنشر ما وصل الينا منه وسلم من عاديات الزمن ــ ومن أقدم من أشار اليه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون (٤) ، فقد وصفه بالنفاسة ولكنه انفرد برأى لم يجـاره فيه أحـد ممن أشاروا الى المضمار أو ترجموا للمنصور اذ قال « توهم بعض المؤرخين فأسند تأليفه اليه ، وانما صنفه رجل من علماء عصره كماهو المفهوم من المختصر ، وصاحبه أعلم به » ، على أن أبا شامة المقدسى المولود سنة ٥٩٩ هـ (أى قبل

---

(١) أبو شامة : شرحه ، ص ١٢٤ ، وتابعه فى ذلك الزركلى : الاعلام ٢٠٤/٧ .

(٢) انظر أبو الفداء : المختصر ١٢٥/٣ ، ابن العماد الحنبلى : شـذرات الذهب ٧٧/٥ ــ ٧٨ .

(٣) اسم هذا الكتاب بالكامل « أخبارالملوك ونزهة المالك والمملوك » فى طبقـات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين وذكرمختصرمن أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء الىهذا الزمان والأوان » وتوجد منه صورة على فيلم بمكتبة معهد المخطوطات العربية بالجامعةالعربية بالقاهرة انظر فؤاد سيد : فهـرس المخطوطات المصورة ، التاريخ ، ق ٣ ، ص ١٠ ــ ١١ رقم ٨٧٥ .

(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ١٧١٢/٢ .

ثمانية عشر عاما من موت المنصور بن المظفر) والمتوفى سنة ٦٦٥ هـ (أى بعد ثمانية وأربعين عاما من موت المؤلف) ينص صراحة على نسبة المضمار لمحمد بن تقى الدين عمـــر اذ يقول (١) « وصف كتابا سماه المضمار جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عيه وأقام عنده »، ثم جاء من بعده أبو الفداء فقال (٢) « صنف عدة مؤلفات مثل المضمار فى التاريخ » ، أما ابن العماد الحنبلى (٣) فقد أشار فى معجمه الشذرات الى عناية الملك المنصور بالنظر فى التاريخ والى أنه « جمع تاريخا على السنوات فى مجلدات » .

على أنه من الأمور التى تسترعى الانتباه أن المقريزى « المؤرخ » لم يشر قط الى مؤلف من مؤلفات المنصور محمد بن تقى الدين عمر ، واكتفى بقوله عنه « انه كان اماما مفتيا فى عدة علوم وله شعر جيد » ، وقد ترجم له فى سطرين ونصف شغل اسمه منها سطرا بأكمله ، وربما كان سر هذا الصمت عن كتب المنصور عند المقريزى أن أحداث هذا العصر السياسية وفتنه واضطراباته وحروبه كانت هى شاغل صاحب السلوك من حيث التدوين حتى لقد طغت على ما سواها ، وكان ذلك الصمت حظ وفيات هذه الحقبة عنده ، اذ أهمل ما لا يمت للحـــرب والسياسة بصلة ، ومع ذلك فقد تبين لنا أن المقريزى (المتوفى عام ٨٤٥هـ) قد استعمل كتاب المضمار وان لم يشر اليه وذلك فى معـــرض ذكره « الاقطاعات » حيث قال :

« كان اقطاع المظفر تقى الدين عمر البحيرة جميعها وهى بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلاث مائة ألف دينار ، وقاى ، وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار ، ثم عوض عن بوش بسمنود والواحات وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهـــو بثلاثين ألف دينـــار » والمرتب « فى كل شـــهر على

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٤ .
(٢) أبو الفداء : المختصر ، ١٢٥/٣ .
(٣) ابن العماد الحنبلى : الشذرات ٧٨/٥ .

الاسكندرية ألف وخمسمائة دينار » ويلاحظ أن هذه هي نفس عبارات المضمار (١) ، مما يدل على أن المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ قد نظر فى المضمار واقتبس منه ، وقد مات صاحبه عام ٦١٧ هـ ومع ذلك فانه لم يشر اليه بشيء .

ولقد سكت أبو المحاسن عن مؤلفات المنصور فترجم له باختصار وكان شأنه فى هذا شأن معاصره المقريزى .

أما ما ذهب اليه صاحب كشف الظنون من عدم نسبة « المضمار » للمنصور بن تقى الدين عمر فقول مردود وحجة تسقط بالبينة المستمدة من هذه النسخة ذاتها ، فأول ما نلاحظه أن المؤلف يشير الى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بالنص على أبوته اياه ، فنراه يكثر فى ثنايا الكتاب من قوله « والدى الملك المظفر » والأمثلة على ذلك كثيرة .

ثم انه عظيم الحب لأبيه كبير التقدير له ، وهذه صفات نستشفها صراحة من أحداث هذا العصر ، أما تمجيده له فيتجلى فيما يذكره (٢) من أن صلاح الدين كان قد كاتب الصليبيين لهدم حصن بيت الأحزان فأبوا طمعا منهم فى أن يزيد القدر الذى بذله لهم من أجل هذا الهدم ، فأشار عليه بعض أصحابه فى اعطائهم ما يرضيهم من المال ، فقال : « ما أفعل شيئا ولا أبرم أمرا الا بمشاورة ابن أخى الملك المظفر عمر » وأنفذ اليه ــ وكان بحماة ــ للاستنارة به وأخذ رأيه ، فأشار تقى الدين عليه بالزحف عليهم وصرف المال الى الأجناد وترغيبهم فى الجهاد ، فلما وقف السلطان على رأيه « السديد » استصوبه وركب عليهم بعد أن سار اليهم المظفر بجماعته فوافاه على دمشق فى أول ربيع الآخر من السنة .

---

(١) انظر هذه الطبعة من المضمار ، ص١٥٤ س ١٨ حتى ص١٥٥ س ٣ ، وقارن أيضا السلوك ١/٨٠ ــ ٨١ بما جاء فى المضمار ، ص ١٥٠ ــ ١٥١ [illegible]

(٢) المضمار ، ص ٢٥ .

ثم انه يشير فى موضع آخر (١) الى أن السلطان ــ وقد سمع باضطراب الأمور فى الشام اثر وفاة الصالح ــ شرع فى التأهب والزحف على الشام ، ولم يجد من يعتمد عليه فى مساعدته فى تسكين الأمور بها سوى « والدى » تقى الدين عمر فكتب اليه « يأمره بالتأهب والنهوض بعسكره ويعرفه أنه سيدركه » ومعنى هذا أن مؤلف « المضمار » هو ابن تقى الدين عمر : الملك المنصور محمد .

واذا قيل ان الكتاب قد يكون من وضع ولد آخر للتقى غير المنصور محمد ، فالمعروف أنه كان للأب ثلاثة أولاد أحدهم المنصور محمد وثانيهم أحمد وثالثهم شاهنشاه .

أما المنصور فقد شارك فى أحداث هذا العصر حتى موته سنة ٦١٧ هـ .

وأما أحمد فقد استشهد « أول ما طر شاربه » فى كسرة الرملة فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٣ هـ .

أما ابنه الثالث شاهنشاه فقد وقع فى هذه الكسرة فى يد الصليبيين، ويصرح أبو شامة (٢) بذلك فيقول ان بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له : تجىء الى الملك (٣) وهو يعطيك الملك ، وزور كتابا فسكن الى صدقه .. « فلما تفرد به شد وثاقه وحمله الى الداوية ، وبقى فى الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير ... فغلظ قلب التقوى على ذلك الولد الذى جر هلاك أخيه » ، ويستفاد من هذا أن الابن الثالث كان فى أسر الصليبيين حين جرت معظم الأحداث التى تضمنها «المضمار» فى خلال هذه الأعوام . يضاف الى هذا ما استشعره التقى من غضب على ابنه شاهنشاه الذى أنكر الأبوة والقرابة طمعا فى الملك حين لوح له به الصليبيون ، فخان الأمانة ، والصالح الاسلامى ، على حين أن حب المنصور لأبيه وللاسلام لم يكن يعدله حب ، ثم انه كان مشاركا لأبيه طوال فترات أسر أخيه سعد الدين شاهنشاه ، ودون

---

(١) المضمار ، ص ٦٠ . (٢) الروضتين ، ٢/٧٠٠ .

(٣) يقصد بذلك رينودى شاتيون امير الكرك المعروف فى المراجع العربية باسم ارناط .

أحداث هذه السنوات فى صفحات المضمار . وليس أدل على أن « المضمار » بصورته الحالية من انشاء الملك المنصور ما جاء فى بعض صفحاته (١) من أن مؤلفه كان نائب المظفر بمصر ، وذلك فى سنة ٥٨٠ هـ ، فالثابت أن السنة كانت امتدادا لنيابة تقى الدين عمر عن عمه السلطان بمصر فاستدعاه السلطان « فخرج فى عسكر مصر » (٢) وحينذاك أناب ابنه الملك المنصور محمدا مكانه ، وعلى هذا الأساس فان ما جاء فى المضمار من قول صاحبه ، « أمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع الى مصر بالعساكر المصرية وكنت يومئذ نائبه بمصر » دليل صريح على ان صاحب المضمار هو « محمد » وليس بأحد سواه .

يضاف الى هذا أن صاحب المضمار يشير الى انه بعد أن تم للمسلمين فتح « ميافارقين » أرسل صلاح الدين « الى والدى الملك المظفر وكان حينئذ صاحب مصر والمتولى على ممالكها يخبرنا بما قد من الله تعالى عليه (٣) » يطابق هذا ما أورده المقريزى (٤) من اشارته الى وجود المظفر تقى الدين عمر فى مصر فى هذه اللحظة بالذات وأنه « خرج لكشف أحوال الاسكندرية وشرع فى عمل سور على مدينة مصر بالحجر ، فلم يبق فقير ولا ضعيف الا خط فيه ساحة من درب الصفا الى المشهد الحسينى » بل انه حين استدعاه اليه بدمشق فى اوائل السنة التالية أقره على ما بيده من البلاد الشامية ، وأضاف اليه ميافارقين (٥) .

من كل هذا نستطيع أن نجزم بأن صاحب المضمار هو ابن تقى الدين عمر وأنه كان نائبه بمصر ، وما من ولد للمظفر ولى النيابة عنه سوى ابنه المنصور محمد مما يؤيد نسبة الكتاب اليه .

* * *

---

(١) المضمار ، ص ٢٠٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ١/٨٣ ، س ٧ ، ٨ ، ١١ .

(٣) المضمار ، ص ٢٢٢ ، س ١٣ ـ ١٥ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ١/٩٠ .

(٥) المقريزى : السلوك ١/٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/١٠٣ .

أما كتاب « المضمار » أو ما وصل الينا منه فلا توجد منه سوى نسخة واحدة معروفة حتى الآن بالمكتبة الأحمدية بتونس رقم ٤٩٣٨ ، وهى تقع فى مائة ورقة ، ومسطرته ١٧ سطرا ، وقد كتب بخط نسخ قديم ، ويظهر أن الناسخ لم يكن على دراية تامة بالأحداث والوقائع وأسماء الأشخاص والمدن فرسمها بصورة ــ رغم حسن الخط ــ توقع القارىء فى حيرة بالغة ، ويتجلى هذا فى أسماء مدن المغرب لا سيما ما يتعلق بحملة قراقوش المظفرى التقوى على بلاد المغرب ، وقد حاولنا جهدنا التعرف على هذه الأماكن فى مظانها الأولى حسب رسمها الوارد فى نسخة المضمار التونسية فوفقنا الى بعض وأعجزنا الوصول الى رسم صحيح للبعض الآخر رغم عرضها على كثير من أصدقائنا فى هذه البلاد الشقيقة ، ولعل ثم من يستطيع الادلاء بالرسم الصحيح لبعض ما غم علينا .

* * *

والمضمار ــ كما يستفاد ممن أشاروا اليه من المؤرخين ــ يقع فى عدة مجلدات أوصلها بعضهم الى عشرة ، ولكن ما بين أيدينا لا يشمل الا سنوات قليلة (ما بين ٥٧٥ ، ٥٨٢ هـ) (١) ، ويستدل من أولى صفحاته التى وصلت الينا على أن هناك أقساما سابقة له قد ضاعت أو دشتت . على أن صفحة الغلاف منه قد كتبت بخط مغربى وما فيها من بيانات تضل القارىء ، فقد ورد فيها أن ما بين دفتى هذه المخطوطة هو « تاريخ البدرى » ولا نعرف من هو « البدرى » أو البديرى المقصود بهذه الاشارة ، ولا جدال فى أن هذه الصفحة الخارجية قد أقحمت على المضمار اقحاما فهل كانت اشارة الى كتاب للشيخ أحمد البديرى الحلاق الدمشقى (٢) ؟

---

(١) راجع الفهرس التفصيلى فى آخر الكتاب .

(٢) نعنى بذلك كتاب حوادث دمشق اليومية للشيخ احمد بديرى الحلاق الشامى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى وقد نشر مخطوطته وحققها الدكتور احمد عزت عبد الكريم وصدرت سنة ١٩٥٩ فى مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

على أن كل ما ضمنته المخطوطة بشكلها الحـاضر ينفى أن تكون له ، لا للفارق الزمنى بين أحداثها فحسب وبين الوقت الذى عاش فيه البديرى ، ولكن لأن أسلوب المضمار يرقى الى الأسلوب الأدبى الذى يدل على أن واضعه كان ممن يتقنون الكتابة بالفصحى ، على حين أن صاحب حوادث دمشق اليومية فى جمعه لمادته « كتبها بأسلوبه الذى تشيع فيه العامية » (١) ، يضاف الى هذا ما جاء فى مستهل المضـمار صراحة من أن هذا القسم هو ختام « المضمار » (٢) .

ثم ان النسخة التونسية هذه لم تصل الينا كاملة حيث وقفت عند أحداث مستهل ٥٨٢ هـ ، وكان ضياع الباقى منها مانعا ايانا عن معرفة السنة التى انتهى فيها المؤلف .

* * *

لكن متى كتبت هذه النسخة من المضمار ؟

ليس فى صفحاته التى بين أيدينا ما يشير الى تاريخ كتابة المنصور للمضمار ، غير أنه وردت بعض عبارات نستطيع على هديها أن نرجح أن ما وصل الينا قد كتب ــ أو كتب معظمه ــ بعد سنة ٥٨٩ ، ومن هذه المعالم التى نسترشد بها فى الوصول الى تأييد هذا الرأى ترحم المؤلف على والده اذ يقول فى شأن وقعة مرج عيون « ذكر سبب غيبة والدى الملك المظفر سقى الله عهوده الرضوان » (٣) ، وهذا الدعاء لأبيه يدل على أن هذه الصفحات كتبت بعـد وفاة تقى الدين عمر فى اثنا عشر من رمضان سنة ٥٨٩ هـ ، وهو تاريخ يجمع عليه كل من كتب عنه ولا اختلاف بينهم فيه وان اختلفوا فى مكان دفنه (٤) حين باغته الموت وهو فى محاربة صاحب خلاط .

---

(١) راجع ص ١٧ من مقدمة الاستاذ الدكتور احمد عزت عبدالكريم لكتاب البديرى حرادث دمشق اليومية .

(٢) المضمار ص ٤

(٣) المضمار ، ص ١٨ .

(٤) مفرج الكروب ٢/٢٧٦ .

وتراه فى موضع آخر (١) يستمطر شآبيب الرحمة على والده حين علم بوفاة الملك الصالح فيقول :

« كتب الى والدى الملك رضـوان الله عليه كتابا وكنا حينئـذ بحماة » ، فهذه العبارة صريحة فى أنه يدون الخبر بعد وفاة المظفر أبى سعيد ، ومثل هذا النص أيضا يطالعنا فى كلامه عما أعطـاه السلطان لتقى الدين من اقطاعات بمصر حين استنابه عليها والتقليد الذى بعث به اليه فيقول « ذكر ولاية والدى الملك المظفر رضوان الله عليه مصر وأعمالها » (٢) .

ثم يقول أيضا فى نفس الموضـع « والدى المظفر رحمه الله » ؛ واستنزال الرحمة عليه دليل جازم على وفاته مما ينسحب بعدئذ على القول بأنه كتب هذه الأحداث بعد وفاته .

* * *

أما أسلوب الكتابة عند صاحب المضمار فيدل على أن صـاحبه أوتى حظا من العربية ، وأنه كان شـديد الاهتمام بعبـارته وحسن صياغتها ، فهو مشرق الديباجة واضح العبارة غير ذات عوج ، وليس من شك فى أن تذوقه الأدب والشعر قد انعكسا فى كتابته ، وليس أدل على اهتمامه بهذه الناحية من استشهاده فى كثير من المواضيع بقصائد ذات صلة بالأحداث ، على حين أهملها غيره من المؤرخين الذين عرضوا لها فى تدوينهم تاريخ هذه الحقبة ؛ وهو لا ينكر أنه قد يورد القصيدة بتمامها « لاستحسانها » كمـا قال فى تقديمـه لقصيدة (٣) سبط ابن التعاويذى فى تهنئة الناصر لدين الله حين ولى الخلافة وهى قصـيدة تقع فى ٥٢ بيتـا ، وأخرى فى مدح صـلاح الدين اقتبس منها سـتة

---

(١) المضمار ، ص ٦٠

(٢) المضمار ، ص ١٥٤

(٣) المضمار ، ص ٦ .

وأربعين بيتـــا (١) ويظهر تذوقه الأدب والشـــعر فى حكمـــه على ابن التعاويذى هذا حين يصفه بأنه « من أفاضـــل الشعراء المقدمين » (٢) كما يورد أبياتا لابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ فى مدح الصلاح (٣) وهو حين يستحسن قصيدة يوردها بأكملها أو يورد جلها كما فعـــل فى قصيدة المهذب ابن أسعد الموصلى (٤) فى مدح السلطان ، ومع أن ما أورده منها هو أربعة وسبعون بيتا الا أن ثلثها الأول تقريبا (٢٤ بيتا) تصلح مستهلا لأى قصيدة تجرى على النهج القديم فى الشعر العربى حيث لا نستطيع أن نسترشد بها وحدها عن الغرض الذى قيلت فيه أو شخصية الموصوف ، وينصب هذا القول أيضا على قصـــيدة لنفس الشاعر (٥) سار فيها على النهج ذاته فى مدح صلاح الدين ، ومثل هـــذا أيضا نراه فى ايراده قصـــيدة ثالثة طـــويلة لسبط بن التعاويذى (٦) يهنىء فيها الناصر لدين الله بختان ولديه أبى نصر وأبى جعفر ، ورابعة لنفس الشاعر أوردها بتمامها (فى ٨٣ بيتا) ، على حين اكتفى أبو المحاسن (٧) منها بستة عشر بيتا حين نقل عن ابن خلكان هذه القصيدة التى جاء فى مطلعها :

حتام أرضى فى هواك وتغضب والى متى تجنى على وتعتب

ويبرر صـــاحب النجوم منهجه فى ايراده الشـــعر مختصرا بأنه « اضراب منه لطوله » ، غير أن الواقع هو اختلاف فى نشـــأة كل من ابن تغرى بردى والملك المنصور مما كان له أثره فى تذوق كل منهمـــا الشعر واصطناعه وسيلة لخدمة التاريخ ؛ فأبو المحاسن نشأ فى جو تسوده العجمة ، ولم يكن ذا حظ كبير فى فنون الأدب ، على حين أن صاحب المضمار كان له من بيئته وثقافته ما يحبب اليه الشعر والأدب

---

(١) المضمار ، ص ٢٠ ــ ٢٤ .
(٢) المضمار ، ص ٦ س ٨ ــ ٩ .
(٣) المضمار ، ص ٣٠ ــ ٣١
(٤) انظر المضمار ، ص ٤٤ .
(٥) انظر المضمار ، ص ٩٧ ــ ١٠٢ .
(٦) المضمار ، ص ٧٦ ، ٧٩ .
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/ ٥٧ .

يجد فيهما متعة روحية انعكست كما رأينا فى تأليفه كتابا عن « طبقات الشعراء » ، وفى ايراده القصائد كاملة فى كثير من الأحيان ، ثم ان أباه تقى الدين ذاته كان شاعرا « وكان له ديوان شعر » (١) .

ولقد عرف الملك المنصور محمد بحبه للشعر والشعراء ، وليس من شك فى أنه كان يهز عطفه المديح ان صيغ فى أسلوب مشرق الديباجة ، حلو الرنين ، وكان يطرب له طربا تجلى فى ايراده قصيدة مدحه بها أحد الشعراء جاء فيها مسترفدا اياه :

قسما برقة خده المتورد ورشاقة فى قده المتأود
انى لأهواه ولست بحائل عن حبه أن صد أو لم يصدد

ثم يقول الشاعر فى مدحه :

واذا خشيت من الزمان سجية تردى فلا تعلق بغير محمد
العادل الملك الهمام الناصر الند ب الكمى البذاذل المتودد
يا أوحد الدنيا أتيتك قاصدا مستعديا من جور دهر أنكد
فخطبت من جدوى يديك مآثرا وأمنت من صرف الزمان الأنكد

ولقد أجدت علينا نزعة صاحب المضمار الأدبية هذه فى ايراده نصوصا وكتبا وعهودا تعتبر بحق مصدرا أساسيا فى ترجمة كثير من الأحداث فى هذه الفترة ، والكثير منها غير موجود لدينا الآن ، ومن ثم فان بعضها يظهر لأول مرة فى هذا الكتاب ويلقى ضياء على جوانب حركات صلاح الدين ازاء الخلافة أولا ثم ازاء أهل بيته ثانيا ، ويكفى أن نقارن بين ما تضمنه « المضمار » من هذه النصوص وبين ما ورد فى الموضوع فى كتب ذلك العصر كالفتح القسى والروضتين والنوادر وابن الأثير لنرى رجحان كفة المضمار فى امداد الباحث بأصول جديدة.

* * *

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/١١٤ .
(٢) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ٦/١١٤ حيث أورد له البيتين التاليين :

يا ناظريه ترفقا ما فى الورى لكما مبارز
هيكم حجبتم ان أراه فهل لقلب الهب حاجز ؟

ومما يلاحظ الى جانب هذا فى المضمار استعمال صاحبه لضمير المتكلم فى أكثر من موضع ، فهناك الى جانب اشاراته الى « والدى » نراه يشير الى اشتراكه فى بعض الغزوات التى وقعت فى هذه الحقبة ، ومن هذا مشاركته الصريحة مع صلاح الدين حين هم بقصد الاستيلاء على الموصل سنة ٥٧٨ هـ بعد غزوة طبرية وبيسان ، ومهد لذلك بزحفه على حلب « وجهاد من بها لما بلغه عن المواصلة أنهم قد كاتبوا الفرنج وأنفذوا اليهم الرسل وبذلوا لهم الأموال » ، فيقول المؤلف « توجهنا بعد ذلك الى بعلبك وخيمنا بمرج عدوسة أياما ورحلنا الى حمص على طريق الزراعة ، فنزلنا بها ورحلنا منها فنزلنا بحمص على العاصى » ، ويفصل هذه الأمور أكثر من غيره ، على حين يجمل ابن واصل (١) هذه الرحلة ولا يصف خط السير الذى اتبعه السلطان ، ويهملها تماما أبو المحاسن فى نجومه (٢) ، على حين أن المقريزى (٣) اكتفى بقوله « خرج السلطان من دمشق يريد حلب ثم رحل الى الفرات ورحل الى الرها فتسلمها وسار عنها الى حران فرتبها ، وانفصل عنها الى الرقة فملكها وما حولها ، ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها » ، على حين أن هذه الأحداث تستغرق فى المضمار (٤) قدرا كبيرا ويشرح ما أجمله المقريزى ويوضح ما أوجزه ابن شداد (٥) .

واستعماله ضمير المتكلم واضح فى بياناته عن وصولهم ــ فى ركب السلطان ــ الى حران ويفسر علة اقدام المواصلة على مهاجمته لما رأوه « من انفراده عن أصحابه بحران وتفرقهم عنه فى البلاد » ، ثم يشرح ما جرى فى أعقاب هذا من أمور وأحداث تضيف جديدا الى تحركات صلاح الدين ، غير أنه مما يؤسف له أن بعض الصفحات ضاعت عند ذكر مسير السلطان الى آمد والنزل عليها (٦) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ١١٧/٢ ــ ١٢٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ٩١/٦ ــ ٩٢ .
(٣) المقريزى : السلوك ٧٨/١ .
(٤) المضمار ، ص ١٠٢ ــ ١٠٦ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٦ ــ ٥٧ .
(٦) انظر المضمار ، ص ١١٥ وحاشية رقم ١ .

ويمكن أن يقال ان اشتراكه مع عم أبيه فى القتال يمدنا بمعلومات جديدة (١) ، ولعل من أوضح الصور التى تجعل للمضمار موضعا فى الصدارة بين المصادر التى تؤرخ لهذه الفترة النص الجديد الذى انفرد به المضمار فى ما ذكره من كتاب الصلاح الى تقى الدين عمر (٢) وهو فى مصر « يحثه على انفاذ العساكر المصرية للجهاد » ، ولقد ساعد المؤلف على ذلك مساهمته الفعلية فى هذه الأحداث ، وهو صريح فى الاشارة الى وجوده فى معسكر الصلاح عند « كوك سو » (٣) حيث ورد عليهم الخبر بموت سيف الدين غازى صاحب الموصل وقيام أخيه عز الدين مكانه ، وهو يكمل الصورة القلمية التى جاء بها ابن الاثير فى ذكره وفاة غازى وما جرى فى أعقابها (٤) .

* * *

على الرغم من أن ما وصل الينـــا من المضمار لا يعدو أن يكون سنوات قصارا تمثل فترة من عهد صلاح الدين ، الا أن مطالعته توضح لنا بجلاء انه كان لصاحبه منهج رسمه فى الكتابة والتأليف التاريخى ، واذا كان قد أم سمت غالبيـــة المؤرخين من جعل الكتـــاب على نظام الحوليات الا أنه كان له نهج لم يحد عنه ، اذ قسمه الى ثلاثة أقسام ، خص القسم الأول بدار الخلافة فى بغداد ، والثانى منها بصلاح الدين متناولا فى ذلك فتوحاته ومتجدداته وأعماله بمصر والشام ، أما القسم الثالث فجديد كل الجدة ونعنى به عنايته التامة بذكر حملة قراقوش التقوى على بلاد المغرب .

* * *

أما الخلافة العباسية فكان لها تقدير عظيم فى نفسه رغم ما كانت

---

(١) انظر على سبيل المثال ص ١٥١ فى شأن رحيل السلطان من حلب .
(٢) المضمار ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٣) المضمار ، ص ٤٣ .
(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٨١ .

تمر به من تدهور تمثل فى أكثر من موضع فى كتابته ، وهذه الخلفية التاريخية فى الاهتمام « بالحضرة الامامية » على حد تعبيره عنها تظهر جلية فى محاولته ذكر كل كبيرة وصغيرة عنها وقد تدفعه هذه الخلفية الى تدوين أمور تحمل الدلائل على أنه كان لابد لهذا التكوين السياسى من السقوط العاجل ، فهو يبرز فى صورة ضخمة ولكنها جوفاء ، وفى هيكل مارد ولكن ساقيه لا تستطيعان حمله لما استشرى بالخلافة من فساد تمثل فى انصراف الرأس الكبير ونعنى به الخلافة ـ الى أمور كان أولى برجال العصر ـ وفى مقدمتهم الصلاح أن يعملوا على ازالته حفاظ للدين والمصلحة السياسية العامة لهذه الرقعة من الشرق الأدنى ، والأمثلة المستمدة من « المضمار » كثيرة كمصرع ظهير الدين ابن العطار (١) واهتمام الخليفة بأن يخرج أرباب الدولة والأمراء خيامهم الى حيث يقدمون فروض الولاء له ، واهتمامه بالنزهة فى دجلة (٢) وانصراف القوم ببغداد لنقل رفات المستضىء بأمر الله الى التربة الجديدة (٣) ، ونقض السفينة الزبزب .

ففى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يثبون على بلاد الاسلام ، وفى الوقت الذى كان فيه السلطان صلاح الدين يقضى معظم أيامه فى مهاد غير وثير وفى ميدان القتال كان كل ما يشغل الخليفة العباسى أن لا تكون الزبزب « بدجلة » ازاء التاج الشريف لترقب من يموت يحمل بها ، لأنه كلما رآها « تكدرت عليه الحياة » (٤) مما يدل على تفاهة فى التفكير كانت لابد من أن تؤدى الى انهيار الخلافة ، وليس من شك فى أن صلاح الدين كان يدرك هذا الجانب الضعيف فى الخلافة ويستهين بها فيما بينه وبين نفسه ، لكنه كان سياسيا داهية أراد استغلالها واتخاذها مخلب قط فى تحقيق ما هدف اليه من انزالها الضربة بصاحب الموصل « بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه ، حتى يطيع ويعود

---

(١) المضمار ، ص ١١ ـ ١٢ .
(٢) المضمار ، ص ٣٩ ـ ٤١ .
(٣) المضمار ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٤) المضمار ، ص ٥٠ .

للصواب ، والا فما قصدنا الا أن نقاتله » (١) وان الخلافة لا تنظر فى اصطناعها رجالاتها فى بغداد وقتذاك الا بقدر ما يبذلون من ارضاء نزوات صاحبها ونساء القصر ، كما حدث فى الخلع على مجاهد الدين خالص الخادم من انعام عليه لخدمته لأمير المؤمنين فى زمن امارته وكان قد رباه ، كما أن بحر درة أمير المؤمنين تحبه وتحترمه وتشتهى أن تراه بهذه الحال لسابق خدمته لها (٢) ، بل ان هذا الانعام ليصل للشخص نجماله ، « وكان الخليفة لا يصبر عنه ساعة واحدة » (٣) وانه ليقطع أحدهم ــ وهو طغرل الخاص ــ البصرة ويجعل فى خدمته خمسمائة مملوك لا لشىء ألا لأنه كان يمضى الى الأمراء فى السر ويستحلفهم للخليفة وقد ألبس جماعة منهم ثياب النساء « وأدخلهم اليه قبل ولايته وهو أمير » .

وعلى الجانب الآخر من هذه الصورة القاتمة التى يصورها صاحب المضمار ــ عن قصد أو غير قصد ــ للخليفة العباسى كانت هناك الصورة الثانية المشرقة عن صلاح الدين وجهاده وهى تشغل جزءا طيبا من الكتاب .

أما القسم الثالث من المضمار فكان فى الواقع تأريخا دقيقا يكاد يكون يوميا لحملة قراقوش المظفرى على بلاد المغرب وقد اتخذ المؤلف لها عنوانا فى ختام كل سنة هو « ذكر وقعة قراقوش المظفرى فى هذه السنة » .

* * *

ولقد رجعنا الى مصادر ذلك العصر وما بعده فى تحقيق ما ورد فى المضمار ، ومن الله التوفيق .

الدقى السبت ٥ أكتوبر ١٩٦٨

حسن حبشى

---

(١) المضمار ، ص ٦٥ .
(٢) المضمار ، ص ٨٥ .
(٣) المضمار ، ص ٧٩ ــ ٨٠ .

ورقة ٨٧ ب — ٨٨ ا من مخطوطة المضمار
الاصلية التونسية

(انظر ص ٢٠٠ ، س ٩ — ص ٢٠٣ ، س ٣)
من هذه الطبعة

الصفحة الاولى من مخطوطة مضمار الحقائق نسخة الأحمدية بتونس
راجع ص ١٢ من مقدمة المحقق لهذه الطبعة

هذا ما جاء فى صفحة غلاف المخطوطة بالمكتبة الأحمدية بتونس رقم ٤٩٣٨ ، انظر المقدمة ص ٩ .

١٥ قيمته خمسة عشر ريالا

الحمد لله ، أشهد مولانا الملك المالك المطاع ، الآتى من أصناف البر بما فوق الاطلاع ، البدر المنير ، والكهف الشهير ، المعتمد على الملك اللطيف الخبير سيدنا المصراص (؟) باسباى صاحب قريتى تونس (؟) ، الواضع طابعه بعد ، ألهمه الله رشده ، ومنحه الكرامة عنده ، أنه حبس هذا الجزء من تاريخ البدرى (؟) على من له أهلية الانتفاع به لينتفع به ولو استنساخا ، تعميما لحصول النفع ، وتوسعة لدائرته ، شارطا ــ أيده الله ــ عدم اخراجه من الجامع الأعظم ــ الذى هو مقر خزائن كتبه الموقوفة ــ الا لأمين بقدر الضرورة فى مدة انتفاعه به فقط ، وأقصى المدة سنة لا يزاد عليها بوجه ، موصى المنتفع به داخل الجامع وخارجه بغاية حفظه مدة انتفاعه ، والله تقع منه بالمرصاد (؟) ، لا تخفاه خافية حبسا مؤبدا لا يغير عن ذلك أبدا ، وشهد على اشهاده ــ وهو على أكمل حال ــ المشهدين فى أواخر ٢٣ رمضان عام ستة وخمسين ومائتين وألف .

فعل سيدنا نصره الله الاكمال والاشهار عليه بواسطة طابعه المرقوم الذى ... وخ (ــتم) بخير .

* * *